شفيق حبيب

في

ديوان" تعاويذ من خزف "

الشاعر / محمود مرعي

(شاعرٌ وصلَ حافةَ اليأسِ والإحباط، ترى إلى أين بعد هذه المجموعة؟)

قسمَ الشاعرُ ديوانه إلى ستة أبواب هي: ضَياعٌ في بحر الذات - الطحالب - سُقوطُ القِناع - دروبُ السفر - أغلقتُ أبوابي - معزوفةُ الخروج واللاعَوْدة.

مجموعُ القصائد في الدّيوان أربعٌ وعشرون قصيدة، تتوزعُ بين الشعر العموديّ وشعر التفعيلة غير الجاري، وهذا هو المؤلف الثاني عشر للشاعر شفيق حبيب؛ ويتميّز الشاعر بالتزامهِ عَروضياً، وخبرتهُ في هذا المجال ليست موضعَ شكّ، وينطلقُ أحيانًا إلى شعر التفعيلة أو (شبه العَروضي) وهو من المُجيدين، وصاحبُ قريحةٍ غزيرة.

من القراءةِ الأولى للمجموعة، يظهرُ أنّ نفسَ الشاعر ونبرتهُ لا تتغيّر من أول قصيدة حتى آخر قصيدة في الكتاب، وحتى قصائدُ الرثاء فيها نفسُ الصّوت رغم جوِّ الحزن والألم لفقد الأحبة.

obeikandl.com

من القصيدة الأولى يُدخلنا الشاعر معه في أجواءٍ من اليأس والسَّوداويّة التي تخيِّمُ عليه بسبب تلاحقِ النكبات على أمّتِهِ وشعبِهِ وحتى السلام، يراهُ عكسَ ما يراهُ الآخرون.

أنـــــا لا أرى في الأرضِ سِـــــــلمًا
وإنمـــا سأصــبحُ عبْـــدًا في بــلاطِ المُحــاربِ
يبيعـــونني الآمــــالَ، يغــــدو رواؤُهـــا
عـــويلاً ودمعًـــا في بـــلادِ الطحالـــبِ
(ص ٧٦)

إذن شاعرُنا مُصابٌ بالإحباطِ وخيبةِ الأمل، ولندخلْ معه في أجواء القصيدة الأولى:

ينسابُ في صوتـي الضبابْ...
وعلى شراعِ سفينتي،..
في بحرِ ذاتـي
ينطوي أملُ الإيابْ..
الليلُ يلفظني...
فيجرعُني الضَّياعُ والاكتئابْ.
(ص٧)

obeikandl.com

وحتى لا يتركنا في حيرة التساؤل، يُجيب:

هذا أنا...

كأسٌ من المُرِّ المُحنظلِ والعذابْ...

هذا أنا...

طيفٌ تطاردهُ النوائبُ

والسوائبُ... والكلابْ..

شِلوٌ قضتْ أشلاؤهُ

بين التخندُقِ

والتمزُّقِ في الشعابْ.

(ص٨)

ثمّ يحاولُ شاعرُنا تبرئةَ الذئاب(السّوائب والكلاب) فليس لها ذنب :

لا الذنبُ ذنبكِ يا ذئابْ

بل ذنبُ كلِّ الراقصينَ.. الهائمينَ

على متاهاتِ الخرابْ.

(ص٨)

الشاعرُ لا يدعُ القارئ يلتقطُ أنفاسه فيدخلهُ مباشرةً في حالة التصوُّر، وبعدما استعرض حالتهُ وصوَّرَ أوضاعه، يتساءل :

obeikandl.com

أين اخضرارُ ربيعِ أوردتي..

وأجنحتي التي طالت شماريخَ السّحابْ ؟

أين الهوى ؟.. والعِشقُ ؟..

والصّدرُ المُشرَّعُ للتحدّي والخضابْ..

ومواسمُ النار التي تهدي السنابلَ

والبلابلَ والجداولَ والغلالَ

وعِطرَ أفراحِ الشباب ؟؟.

ومباشرةً بعد هذه الأسئلة المؤلمة يأتي بما هو أشدّ إيلامًا :

ما للغريبِ سوى نعيقِكَ يا غرابْ..

(ص١٠)

وأسئلتهُ ليست لمجرّد السؤال بل هي للوخز في الضمير.

ويمكن أن نقسِّم هذه القصيدة إلى ثلاث مراحل، الأولى: التعريف... الثانية: التساؤل أو الوخز للإيقاظ... والثالثة: التقرير...

وهذه هي ما سنوردهُ الآن وهي آخر القصيدة :

لا الشمسُ شمسُكَ

لا النجومُ نجومُ ليلى والرّبابْ

obeikandl.com

فاشربْ كؤوسَ القهرِ...

واستعذبْ ثمالاتِ الشرابْ

واصبرْ على مُرِّ التلظي

والتشظي... والعِقابْ

فالموتُ شهْدُ العاشقينَ القابضينَ

على القصيدةِ... والعقيدةِ... والكتابْ.

ولكَ أن تسألَ عن نجوم ليلى والرّباب وإلى أين يتجهُ حنينُ الشاعر من خلال الإشارة إلى ليلى والرّباب والسبب أنه لا يرى سوى خواءٍ وانشطار :

كلُّ ما فينا خواءٌ في خواءْ

نتداعى حاضراً يغرقُ في البؤسِ

وأوحالِ الرِّياءْ

.....

ربُّنا المالُ

وفي أخلاقِنا عهرٌ وفسقٌ واهتراءْ

نحن كالديدان في الظلمةِ

تعشى عندما يبدو الضياءْ

obeikandi.com

نحن لا نبني حضاراتٍ

ولكن نتغنى بتسابيحِ الدُّعاءْ

نحنٌ صحراءٌ..وجَدْبٌ

وظلامٌ.. وشقاءْ

فِكرُنا قحْطٌ كغيمِ الصَّيفِ

منثوراً..هباءًا في هباءْ

كلُّ ما فينا...

ركوعٌ.. وسجودٌ.. وانحِناءْ.

(ص٤٤-٤٥)

بهذا الوضوح الذي لا يحتاجُ ركضًا خلفَ المُفرَدات، ولعلّ من الواجب أن نشيرَ إلى صِدْقِ الشاعر، وصِدْقِ رؤيتهِ:

آهِ يا شعبَ الفراغ!

الضارب الأطنابَ فينا كالوَباءْ...

كلّ ما حولكَ من صنعِ عقولِ الغرَباءْ

ما الذي أعطيْتَ يا مشلولُ للدنيا

سوى ذُلكَ ممزوجًا بآهات البكاءْ

أنتَ مهزومٌ وللمهزومِ موتٌ وفناءْ.

(ص٤٦)

obeikandl.com

والآن سأستقصي "الأنا" لدى الشاعر فهي خيرُ من يصوّرُ هذا الإحباطَ، وهي ربما تكفي القارئ لفهم المجموعةِ كلها.

هذا أنا،

كأسٌ من المُرِّ المُحنظلِ والعذابْ

هذا أنا،

طيفٌ تطاردُهُ النوائبُ.. والسّوائبُ الكلابْ

شِلوٌ قضت أشلاؤهُ..

بين التخندقِ والتمزّقِ والعذابْ.

(ص٨)

.....

أنا فارسٌ،

ضاعت سنابكُ خيْلِهِ

في حانةِ الزمن الوضيعِ

أنا شاعرٌ،

ضاعت قوافي شِعرِهِ

في هزَّةِ الرِّدفِ الخليعِ

(ص ٢١)

.....

obeikandl.com

أنا أيّها الحلاجُ زلزلةٌ

يُخبِّئها نجيعي.

(ص٢٢)

.....

أنا ورقٌ خريفيٌّ

تطاير كاشتعال الريحِ في أحضانِ تشرينِ.

(ص٢٤)

.....

أنا صدأٌ..

أنا صدأٌ..

وصوتٌ غاضَ في لجٍّ

رُكامًا صارخَ النبرِ

رغيفُ الخبزِ من رملٍ

وماءُ النهرِ مأسونٌ

وأيامي مُحنطةٌ

تنوءُ على لظى الأوباءِ، والصحراءِ، والفقرِ..

(ص ٣١)

.....

obeikandl.com

إني أضعتُ ملامحي، وتفرُّدي وجوارحي
وغدوتُ عنوانًا على صدر النوائبْ.
(ص ٣٨)

.....

أنا شاعرٌ يقتاتُ من مُرِّ الهزيمة.
(ص ٣٩)

.....

إني كفرتُ بذاتِ ذاتي (ص٤٠)/ إنني أكرهُ نفسي/ حاضري مرآةُ نفسي/ كلما رُمْتُ انعتاقًا / شدّني جهلي لرمسي (ص٥٢)/ أنا ما كنتُ يومًا كالبعيرِ/على رمالِ البيدِ في نجدٍ وفي نجرانْ. (ص٦٣)/ أنا الباقي/أنا الباقي/إذا انهارَ الجرادُ على دروبِ /البيفِ... والكوكا/وماك- دونالدزَ والأجبانْ / أظلُّ على الطوي شبعانْ (ص٦٦)/ أنا لا أرى في الأرض سِلمًا وإنما/سأصبحُ عبدًا في بلاطِ المُحاربِ (ص٧٦)/ ألا أيها البعد!!/ هذا أنا/ أنادي طلولَ الدِّيارِ / وفحمَ الدّمارِ/ وخيلَ القبائلِ في المنحَدَرْ (ص٩٤)/ ألا أيها السِّلمُ !!/ هذا أنا... جريحٌ يودِّعُ ما قد غبرْ. (ص٩٥)/ يا رملَ ضياعي / في الصحراءْ.../ إني منثورٌ كرمادٍ/ في قبضةِ عاصفةٍ هوجاءْ (ص١٠٤)/ سردابًا أضحت دائرتي/ وأنا شرنقةٌ ضامرةٌ/ تملأها ألفازٌ حَيْرى/ وينوحُ خواءْ. (ص١٠٥).

إنـــي ســـجينٌ كـــالهَزارِ ومـــأمَلي

هـــذا الفضـــاءُ الرّحْـــبُ خلـــفَ إســـاري

(ص١١١)

إنـــي أضـــعتُ العُمـــرَ خلـــفَ سَـــرابها

وأضـــعتُ دربـــي في شِـــعابِ قِفـــاري

(ص١١٣)

هذه هي "الأنا" لدى شاعرنا شفيق حبيب وهي كما يراها القارئ مُحْبَطةً تتفجّرُ حسرةً وألمًا ولا ترى منفذًا واحدًا للأمل، حتى أنني لم أعثر في المجموعة كلها على قصيدة غزلٍ واحدة.

هناك ثلاثةُ أبياتٍ جاءت فيها "الأنا" لدى الشاعر بشكلٍ مُغاير ولكنها في نفس الوضع والواقع.

- البيتُ الأول:

إنـــي انتصـــبتُ مـــعَ القـــوافي شـــاهرًا

حـــرفي بوجـــهِ الظـــالمِ الجبّـــارِ

والواقع هو الظلم، وما دام الظلمُ موجودًا فإنّ هناك ظالمًا ومظلومًا، والشاعر نفسه في مواجهة الظالم،.

- البيت الثاني:

أنـــا في سمائـــكَ يـــا جليلـــي! راصـــدٌ
أنـــا في فضـــائكَ صَـــيْحةُ الأحـــرارِ

وهذا البيت ينطلقُ من نفس الرؤية.

- البيتُ الثالث:

هـــذا أنـــا صـــوتٌ يشـــقُّ صـــدورَهم
ونعيـــــبُهم كالنـــــارِ في أعصـــــابي

وهنا أيضًا الشاعر في مواجهةٍ معهم ولكنّ نعيبَهم كالنار في أعصابه.

لقد آثرتُ أن أذكرَ في المقالة جميعَ الحالاتِ التي وردت فيها "الأنا" لدى الشاعر لأثبتَ ما زعمتُ من أن الشاعرَ يقفُ على حافةِ اليأس والإحباط ممّا يرى حولهُ، ويصحّ بالتالي أن نطلقَ عليه "شاعر الوَجع" ؛ ولعلّ قولهُ الآتي يختصرُ حالته :

أشعَلتُ مجامرَ أقلامي...
وحمَلتُ قناديلي ظهْرًا...
أبحثُ عن مَوْتى أحلامي...

obeikandl.com

ذاتي هائمةٌ... شاحبةٌ...

تبحثُ عن ذاتي وحُطامي...

جريدة بانوراما النصراوية

١٩-٧-١٩٩٦

obeikandl.com